فى الأدب وغـــيره

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

زارنى مرة لفيف من الشبان قال قائلهم : إنهم جاءوا ليسألونى عن رأيى فى الأدب ويستفتونى فى مسائل ، فساءنى هـذا ولم يسرنى ، فقد كنت مشغولاً ، وكان العمل الذى ينبغى أن أفرغ منه كثيراً ، فسألت الذى كان يتكلم : « كم سنك ؟ ولا تخش أن أذيع السر ؟ »

قال « ثنتان وعشرون »

قلت « يا أخى ، إنى كنت فى مثل سنك صاحب رأى ، فى الأدب وغيره ، وصاحب مذهب أدعو إليه وأحاول هدم ماعداه ؛ وكان لى ديوان شعر مطبوع ، وزوجة ووظيفة أيضاً . ولا أنكر أن رأيى قد تغير فى مسائل كثيرة ، ولكن هذا لماذا ؟ إنه دليل على أنى أديم النظر والتفكير والتدبر ، ولعلى كنت فى أمسى على صواب ، وعسى أن أكون فى يومى على خطأ ، ولكن المرء لا يطالب بالتوفيق ، وإنما عليه أن يسعى ، وأنا أذكر لكم هذا لأنى أنعجب لكم وأستغرب أمركم . فلماذا بالله لا تنظرون بعيونكم ، ولا تفكرون بعقولكم ؟ ولماذا ينبغى أن أتعب أنا لكم — أقرأ وأحصل وأفكر وأنخل وأغربل ، وأنتم مستريحون ليس عليكم إلا أن تتجشموا تعب الحضور إلى هنا ، وإلا أن تؤدوا أجرة الترام ، أو الأمنيبوس ، ومن يدرى لعلكم آثرتم المشى فإنكم شبان أقوياء ، والأحذية التى تبلى يؤدى ثمنها آباؤكم فلا خسارة عليكم تشعرون بها ، وليبق الفرش فوق الفرش ليتيسر أن تقضى السهرة فى مرقص ! »

فضحك أحدهم ، ورآه الآخرون يضحك ، فابتسم البعض وقهقه البعض ، فقلت ، وأنا أحس أن عفريتا قد ركبنى : « صحيح قولوا ... كم كتاباً عندكم بأن تشتروا فى حياتكم منـذ عرفتم الكتابة والقراءة إلى الآن — أعنى غير الكتب المدرسية التى لا تفتحونها إلا لأداء الامتحان ؟ »

فلم يجيبوا ، وماذا عسى أن يقولوا ، وأنا أعرف أن هذا الجيل يندر فيه من يحصل من العلوم أو الفنون أو الآداب شيئاً غير ما يتلقى فى المدرسة ؟ وحتى الذى يفيده فى المدرسة ينساه بعد الامتحان ، ولم يسعنى وأنا أحاول أن أوقظ نفوسهم وأبث فيهم روح الطلب إلا أن أذكر كيف كنا فى صباننا نفرح بما يجتمع فى أيدينا من المال القليل ونخف به إلى المكاتب ونروح ندير عيوننا فى مئات الكتب المرصوصة على رفوفها ولا نخرج إلا وقد نفد ما معنا أو كاد

وكان الذى أسخطنى على هؤلاء الشبان هذا الكسل والاعتماد على الغير ، والرغبة فى إفادة المعرفة — كائنة ما كانت قيمتها — بلا عناء أو مشقة . ومن أدراهم أن ما يسمعون منى أو من سواى هو الصواب ؟ وهم يتلقون ماتفضى به إليهم من رأى ناضج أو فطير بالتسليم والتصديق وبلا مناقشة

وأحسست من هيئاتهم ونظراتهم أن الأولى بى أن أدخر جهدى ، فأسلمت أمرى لله وقلت لهم : « تفضلوا ... سلوا مابدا لكم »

فأدنوا كراسيهم ، وقد نسوا العلقة التى استقبلتهم بها ، وأقبلوا علىّ يسألوننى عن الأدب والغاية منه ، فضحكت وقلت : « والله ما أعرف له غاية ؛ وإنى لحى ، ولكنى أجهل الغاية من الحياة ، فكيف تريدون منى أن أعرف الغاية من الأدب ؟ وأعترف أنى كنت قبل سنوات طويلات المدد ، قد أقنعت نفسى بأن للأدب غاية ، وكان الذى جسم لى الوهم هو ما قرأته فى هذا الباب ، فرحت أنسج على منواله وأقول كلاماً شبيهاً به ؛ ويتفق أن يقع فى يدى شئ مما كتبته فى ذلك الزمان فلا يسعنى أن أضحك ساخراً ، لأنه كان من الجهل أو التقليد — كلا . لا أعرف غاية للأدب ... وقولوا ما شئتم ، ولكن الحقيقة هى أنى نظرت ونظرت ، وحدقت ، وحملقت ، حتى كادت عينى تخرج ، فلم أر شيئاً ؛ وأنى فكرت وفكرت ، فلم يهتد عقلى هذا إلى شئ . وكل ما أعرفه هو أنى أزداد حيرة كلما علت بى السن ، وإن كل ما كنت أعده من الحقائق الثابتة يخامرنى الآن فيه شك كبير ... والسبب فى ذلك ، فيما يبدو لى ، هو أنى أتلقى ما أقرأ بالتسليم ، أما الآن فأنا أجادل وأكابر بالخلاف فى كل شئ ، وقد ينتهى بى الأمر إلى التسليم والموافقة ، ولكنى أجد لذة فى هذه المكابرة »

فسألني بعضهم : « لماذا قل الشعر السياسي في هذا الزمان ؟ »

قلت : « لا أدري ، وعسى أن يكون السبب أن الناس صاروا أسمح فهماً للأدب ، وأتم إدراكاً له ، وأكبر عقولاً ، وأوسع نفوساً . نعم أظن هذا هو السبب ، فقد كان الشعر السياسي هو الذي يكثر فيه القول ، وكان شعراء ذلك الزمان إذا قالوا في غير الحوادث لا يفعلون ذلك إلا على سبيل التسلي ، وليقال عنهم إنهم يجيدون النظم في كل باب . ولكن الناس يدركون الآن أن شعر الحوادث ليس إلا باباً واحداً صغيراً من مئات وآلاف من أبواب القول ، أو من « بواباته » . ولم يكن شعر الحوادث شيئاً مستحدثاً أو جديداً ، لأنه لم يكن أكثر من ضرب من التقليد للشعر القديم ، فكما كان المتنبي يقول في حروب سيف الدولة ، كذلك كان شوقي يقول في الخديو وأعياده ورحلاته وفي السلطان وأعماله ، ثم بعد ذلك في الحوادث السياسية التي يلح عليه أصدقاؤه أن ينظم فيها كلاماً . وكان حافظ يقول في العميد البريطاني وفي سياسة الإنجليز ، لأنه لم يتصل بأمير كما اتصل شوقي ، فحل الشعر أو الرأي العام عنده محل الأمراء الذين كان الشعراء السابقون ينظمون الشعر لإرضائهم ، واقتضت المنافسة بين الرجلين أن يكون حافظ شاعر الشعب ، كما كان شوقي شاعر الأمير . وقد تغير كل هذا ، وزهد الأدب الحديث في التقليد ، ونظر رجاله بعيونهم ، وأحسوا بأعصابهم ، وفكروا بعقولهم ، ففتحت لهم آفاق رحبة جداً صرفتهم عن القول في الحوادث العارضة ، وشغلتهم بما هو أعمق وأصدق في الحياة ؛ فلست تراهم يقولون في الحوادث إلا إذا استفزت نفوسهم وحركتها تحريكاً قويًّا يجري الشعر على ألسنتهم ، لا تكلُّفاً ولا تقليداً ، بل لأنهم لا يسعهم في هذه الحالة إلا أن يقولوا . ولا شك أن ثم أسباباً أخرى ، أسوق منها على سبيل التمثيل ، أن الأدباء يعمل أكثرهم في الصحف ، وهم يكتبون كل يوم تقريباً في الحوادث ، فلا معنى لأن يقولوا الشعر فيها أيضاً ، إلا إذا عرضت مناسبة فذة قوية تحرك النفس كما قلت . والكتابة أسهل ، والإقناع بها أقرب ، والشعر لا يصلح للجدل السياسي كما تصلح الكتابة ، ولكني أعتقد أن صحة الإدراك للأدب هي السبب الأول ، كائنة ما كانت الأسباب الأخرى . ولا مانع من أن يقول الشاعر في السياسة والحوادث إذا أحس دافعاً إلى ذلك ، كما يقول في غير ذلك إذا بعثته البواعث »

فنهضوا ، ومدوا أيديهم ليصافحوني ، وتمتم بعضهم بالشكر ، فابتسمت وقلت لهم « والله إني لتحدثني نفسي بأن أنقض لكم كل ما سمعتم مني ، وأن أثبت لكم أن كل ما قلت خطأ في خطأ ، وأن الصحيح والصواب غير ذلك . وإني لقادر على هذا . والسر في قدرتي أني أراكم أهملتم هذه العقول التي ركبها لكم الله ؛ ولا شك أن له سبحانه وتعالى حكمة في خلق عقول لا يريد أصحابها أن ينتفعوا بها . فليتكم تستطيعون أن تعيروني بعضها ما دمتم لا تنتفعون بها ، فإن رأسي قد كل وتعب ومل »

فضحكوا وانصرفوا ، وقعدت وأنا أهز رأسي وأمط بوزي آسفاً متعجباً ...

ابراهيم عبد القادر المازني

كتب بقلم محمد عبد الله عنان — فرصة أدبية

ابن خلدون

فيه عرض نقدي لحياة المؤرخ الفيلسوف وتراثه الفكري والاجتماعي ووصف شامل لآثاره وفهمه وأسلوبه . واستعراض لجميع المباحث الغربية التي صدرت عنه وعن تراثه

في نحو مائتي صفحة وثمنه ٨ قروش

مصر الاسلامية

فيه تاريخ مفصل للفسطاط والقاهرة وتراجم وتحقيقات وافية عن مؤرخي الخطط المصرية وعدة مباحث شائقة أخرى في تاريخ مصر الاسلامية

ثمنه بعد التخفيض ١٠ قروش

قصص اجتماعية

يحتوي على مجموعة مختارة من القصص الرفيع الشائق لجماعة من أعلام الأدب الفرنسي مثل بورجيه وأناتول فرانس وكوبيه وموباسان وغيرهم مقرونة بتراجمهم النقدية ومترجمة بأسلوب فائق

في ثلاثمائة صفحة وثمنه ١٠ قروش

وتباع الثلاثة معاً مؤقتاً بمبلغ ٢٠ قرشاً

وهذا عدا البريد لكل كتاب وقدره قرشان وتطلب من المؤلف بمصر بشارع الهامي باشا تليفون ٤٤٦٨٣ ومن المكتبة التجارية ومكتبة النهضة بشارع المدابغ ومن جميع المكاتب الأخرى